

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ابن تيمية

باختصار، من الجزء الثاني من كتاب
رجال الدعوة والفكر في الإسلام
لعلي الحسيني أبي الحسن الندوي.

حد من حرية الفلسفة، وإدالة لتعليم النبوة منها:

في القرن الثامن الهجري ظهرت الحاجة إلى رد فعل علمي شرعي ضد طغيان الفلسفة وعدوان علم الكلام على العقيدة في الله، فقد كان البحث عن ذات الله وصفاته من رؤوس القضايا التي شغلت بحوث الفلسفة وعلم الكلام. أما الشريعة الإسلامية فلم تترك موضوع العقائد غامضاً ملتويّاً غير واضح للإنسان، بل إنها جعلت هذه الناحية موضع عناية بالغة بالنسبة إلى الأديان السابقة لأنها أساس المجتمع الفاضل والمدنية المثلى، والفضائل من الأعمال والأخلاق؛ إن الشريعة الإسلامية وجهت إلى الإنسان توجيهات حاسمة سهلة واضحة حول ذات الله وصفاته، لم تعد بعدها أي حاجة إلى تحقيق وتدقيق أو قياس. إن مصدر هذا العلم والإيمان إنما هو تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن كلامهم أكبر برهان على أنهم هم العارفون بما وراء الكون من إله وبصفاته النادرة الفذة التي لا تقبل القياس والنهاية.

ما كان للفلسفة أن تتحدث عن هذا الموضوع أو تقوم خصماً بإزائه

إذ لم تكن تمسك مبادئ هذا العلم الأساسية، ولا تلك المعلومات التي تتوصل بترتيبها إلى مجهولات، ولم تكن تصلح لإجراء اختبار أو تحليل، ولم يكن الفلاسفة أهلاً لذلك، ولكن الفلسفة على الرغم من عجزها العلمي تحطت حدودها، ولم تكتف بالتدخل في هذا الموضوع فحسب بل إنها بحثت قضاياها وفروعه بثقة كبيرة وتحكم بالغ، وبتفصيل زائد وتدقيق شديد، وقامت بتحليل يختص بالمعامل الكيميائية فقط.

ظهر علم الكلام لمقاومة الفلسفة ونصرة الدين، وكان ذلك أمراً لازماً، غير أنه تأثر بالفلسفة وتسربت إليه روحها حتى تكونت «فلسفة دينية» تنتهج نفس المنهج، وتبحث نفس الموضوع، وتتبع نفس الأسلوب للبحث والاستدلال، وتعيد نفس الخطأ في اعتبار ذات الله وصفاته وقضايا ما وراء العقل أموراً عقلية يمكن إثباتها عن طريق العقل، وكذلك تسيطر على هذا المنهج من البحث روح عدم الاقتناع بما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من شرح وتعبير في هذا الموضوع واستخدام مصطلحات يونانية تقوم على علم محدود ناقص وتثير شبهات، الأمر الذي دعا إلى تعقد القضايا وتوسعها بله أن تنحل أو تختصر، ووجدت «فلسفة إلهية» وكتب ضخمة في شرح العقائد، إزاء أسلوب مقنع مؤثر كان جديراً بشحن النفوس بالإيمان والإذعان، وإقناع العقول في كل زمان، وكان مؤسساً على نصوص الكتاب والسنة.

وكانت هذه الفلسفة الإلهية الجديدة قد تأثرت بالفكر اليوناني رغم أنها ظهرت ضد الفلسفة اليونانية، فكانت روح الكتاب والسنة تحتج دائماً على هذا الموضوع ووجدت طبقة وجبهة في الأمة الإسلامية معارضة لهذه التفاصيل الفلسفية والتأويل الكلامية، غير أن الحاجة إلى عالم كبير نافذ البصيرة، واسع العلم، قوي الإيمان كانت أكيدة لشرح الكتاب والسنة والتعبير القوي المؤثر عنهما، ذلك الذي يعتقد أجزم الاعتقاد أن في نصوص

الكتاب والسنة حول ذات الله وصفاته وفي تعبيراتها عنها غنى وكفاية تامة، ذلك العالم الذي يتوصل بذكائه ودراسته إلى أعماق الفلسفة ويطلع على خباياها وكوامنها، ويتمكن من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمي، بما عنده من علم بمواضع ضعفها الأساسية، ذلك الذي قد تعمق بتفكيره فوصل إلى أغوار علم الكلام، واطلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الإسلامية، ولا يخفى عليه شيء من تاريخ علم الكلام ونموه، ذلك الرجل الذي يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزاز بنصوص الكتاب والسنة ومذهب السلف بفضل دراسته وتجاربه، يفيض عزماً وحماسة لنصرتة وشرحه، ويعيش على حسك السعدان لكي يثبت رجحان مذهب السلف وفضله من الناحية العقلية على غيره من الفلسفات والنظم العقلية، كما يكون متمتعاً بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التي تتطلبها هذا العمل العظيم، ومتميزاً في ذكائه وقوة بيانه واستدلاله وسعة نظره وعمق دراسته عن غيره، يكون فوق مستوى عصره وكفوّاً للقيام بهذه الخدمة بمعنى الكلمة.

وكانت هذه الفلسفة الإلهية الجديدة قد تأثرت بالفكر اليوناني رغم أنها ظهرت ضد الفلسفة اليونانية، فكانت روح الكتاب والسنة تحتج دائماً على هذا الموضوع ووجدت طبقة وجبهة في الأمة الإسلامية معارضة لهذه التفاصيل الفلسفية والتأويل الكلامية، غير أن الحاجة إلى عالم كبير نافذ البصيرة، واسع العلم، قوي الإيمان كانت أكيدة لشرح الكتاب والسنة والتعبير القوي المؤثر عنهما، ذلك الذي يعتقد أجزم الاعتقاد أن في نصوص الكتاب والسنة حول ذات الله وصفاته وفي تعبيراتها عنها غنى وكفاية تامة، ذلك العالم الذي يتوصل بذكائه ودراسته إلى أعماق الفلسفة ويطلع على خباياها وكوامنها، ويتمكن من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمي، بما عنده من علم بمواضع ضعفها الأساسية، ذلك الذي قد

تعمق بتفكيره فوصل إلى أغوار علم الكلام، واطلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الإسلامية، ولا يخفى عليه شيء من تاريخ علم الكلام ونموه، ذلك الرجل الذي يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزاز بنصوص الكتاب والسنة ومذهب السلف بفضل دراسته وتجاربه، يفيض عزماً وحماسة لنصرتة وشرحه، ويعيش على حسك السعدان لكي يثبت رجحان مذهب السلف وفضله من الناحية العقلية على غيره من الفلسفات والنظم العقلية، كما يكون متمتعاً بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التي يتطلبها هذا العمل العظيم، ومتميزاً في ذكائه وقوة بيانه واستدلاله وسعة نظره وعمق دراسته عن غيره، يكون فوق مستوى عصره وكفوفاً للقيام بهذه الخدمة بمعنى الكلمة.

في مواجهة المسيحية، وتقدمها العلمي:

هذا، وقد كان الإسلام هدفاً للهجمات الداخلية والخارجية بجانب آخر، وكان المسيحيون قد تحمسوا لإثبات أن المسيحية هي الدين الحق، وتوجيه الإيرادات إلى الإسلام، إن الهجوم الصليبي المتتابع ووجود عدد كبير من مسيحيي الغرب في الشام وقبرص، شجعهم على مواجهة المسلمين في المجال العلمي وعلى تأليف كتب تثبت فضل دينهم وأخرى ترفض نبوة محمد ﷺ.

وللرد على كل ذلك كانت الحاجة ملحة إلى عالم كبير ومتكلم، له دراسة عميقة في المسيحية والديانات الأخرى، وله اطلاع واسع على الصحف السماوية وما واجهته من تغيير وتحريف، ويستطيع أن يحسن المقارنة بين الديانات ويثبت فضل الإسلام وخلوده في أسلوب علمي مؤثر قوي، ويتمكن من دعوة أتباع الديانات الأخرى إلى الإسلام بحكمة وقوة.

فضح المذاهب المنحرفة والحركات الهدامة :

وقد كان أشد وأكثر خطورة من هذه الهجمات حملة شنتها فرقة إسلامية دخيلة على الإسلام وهي الفرقة الباطنية التي كانت ديانتها وتعاليمها مجموعة عجيبية للعقائد المجوسية والأفكار الأفلاطونية والأغراض السياسية. وقد كانت هذه الفرقة وفروعها المختلفة تتعاون مع القوى العدوانية والمهاجمين الأجانب على الإسلام، وهي التي مهدت الطريق ودبرت المؤامرات للهجوم على الأقطار الإسلامية وساعدت الصليبيين في شن هجومهم على الشام، وذلك ما حمل الصليبيين عند استيلائهم على الشام على أن قربوا رجال الفرقة الباطنية وجعلوهم موضع ثقتهم ونجواهم وأحسنوا إليهم، اعترافاً بمساعدتهم المخلصة، وقد ظل هؤلاء الباطنيون مشغولين بتبئير المؤامرات وتدير الثورات في عهدي صلاح الدين ونورالدين، فلما قصد وحوش التتر أرض الشام بهجماتهم العنيفة ساعدهم الباطنيون علناً وجهاً، وأصابوا المسلمين بضرر بالغ، وذلك عدا ما كانوا يقومون به بصفة دائمة من نشر اضطراب فكري وتشاؤم بالدين وإلحاد وزيف وثورة على الدين وكانوا «كالطابور الخامس» في حصن المسلمين الديني.

كل ذلك كان يحتم على المسلمين أن يقتلعوا جذور هذه الفرقة من الناحيتين العلمية والعملية، ويكشفوا القناع عن معتقداتها وأغراضها ليطلع المسلمون على نواياها ويعاقبوها معاقبة شديدة على أعمالها العدائية ومحاربتها للإسلام، ولم يكن يقوم بهذه المهمة إلا من له اطلاع تام على حقيقة هذه الفرقة وأسرارها وتاريخها، وله معرفة بجميع فروعها ومعتقداتها وأفكارها مع قدرته البالغة على تناولها بالرد والنقد، مضافاً إلى ذلك حماسه الزائدة للإسلام ودافعه القوي للجهاد ضد أعداء الإسلام.

محاربة العقائد، والأعمال الشركية، والدعوة إلى الدين الخالص:

هذا وكانت الجماهير المسلمة فريسة العقائد الباطلة وأعمال الشرك بضغط عوامل عديدة، منها اختلاطهم بغير المسلمين، وتأثير العجم، وتهاون العلماء، وقد أصبح الدين الخالص والتوحيد النقي وراء حجاب وحجاب، ونشأ الغلو والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى، حتى بدأت عقيدة التوسط والتقرب بالأولياء ترسخ، وينطبق عليهم ما حكاه القرآن من قول مشركي العرب الأولين: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، وانتشرت هذه الفكرة الجاهلية في أوساط المسلمين، وأصبح كثير من العلماء لا يرون بأساً في الاستغاثة بغير الله والاستعانة به، واتخذت قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وتحقق الخطر الذي كان قد أُنذِر به النبي ﷺ وشدد النهي عنه، ولم يكن المسلمون يشعرون بأي غضاضة في التخلق بأخلاق الذميين والكافرين واتخاذ شعائرتهم وخصائصهم والحضور في أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم واصطناع تقاليدهم وعاداتهم.

فكانت الحاجة ماسة إلى عالم مجاهد يتصدى لمحاربة هذه الجاهلية المشركة والدعوة إلى التوحيد الخالص بكل قوة وإيضاح، ويكون عارفاً بالفرق بين التوحيد والشرك معرفة دقيقة، ولا تخفى عليه الجاهلية مهما تقنعت وتنكرت أو ظهرت في مظاهر بريئة، ويكون قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرة من الكتاب والسنة وحياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم لا من كتب المتأخرين وتعامل المسلمين الجهلاء، وتقاليد الزمان وعادات الناس، ولا يبالي في الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضة الحكومات وعداوة الناس ومخالفة العلماء ولا يخاف في ذلك لومة لائم، ويكون ذا نظر دقيق وعلم واسع بالكتاب والسنة ومصادر الدين الأولى الموثوق بها، وبأحوال القرون الأولى، وذا اطلاع كامل على تاريخ اليهود والنصارى وقصة

انحرافهم ومسخهم وتحريفهم، وعلى عقلية الأمم الجاهلية ونفسياتهم، ويعيش في تألم وقلق لكي يعيد المسلمين إلى تعاليم القرآن وعقيدة الصدر الأول ويأمرهم منتهجين طريق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأتباعهم.

محاربة الانحرافات والمغالطات في الطوائف الدينية، وتنقية الدين من الشوائب:

وقد تسرب إلى المتصوفين - لأسباب تاريخية وعلمية عديدة - تأثير الفلسفة الإشراقية التي جاءت من يونان والهند، وامتزجت بالعقائد الإسلامية وأفكارها امتزاجاً لا يتسنى لكل واحد فصلها عنها. إن إشراقية الأفلاطونية الجديدة أوتنسك الهنود، وعقيدة الحلول والاتحاد، ومذهب وحدة الوجود، وتقسيم الظاهر والباطن، وفتنة الرموز والأسرار، والعلم الدفين، وسقوط التكاليف الشرعية عن «الكاملين» و «الواصلين» واستثناءهم عن الأحكام الشرعية، كل ذلك كانت معتقدات وأفكاراً نالت إعجاب طبقة كبيرة من المتصوفين، وبالرغم من إنكار أصحاب التحقيق والرسوخ في العلم من هذه الطائفة في كل زمان لهذه المعتقدات الفاسدة كانت طبقة من المتصوفين تلح عليها، حتى تسفل بعض فروع التصوف وسلسله إلى حد الشعوذة والتهويل، ولا سيما بعض فروع السلسلة الرفاعية التي انحرفت في العهد الأخير عن أصلها وتعاليم مؤسسها، وآثر كثير من رجالها الذين لم ترسخ قدمهم في العلوم الشرعية والعقائد الإسلامية الأعمال البهلوانية، زاعمين أنها تؤثر في عقول المغول والتتار وترغبهم في الإسلام، وكان لذلك ضرر عظيم على سلامة العقيدة ومكانة الشريعة، وقد استفحلت هذه الفتنة في القرنين السابع والثامن، ووقع العامة وكثير من الخاصة فريسة هذه المغالطات.

ولقمع هذا الخطر الناجم أيضاً والحفاظ على الشريعة كانت الحاجة

شديدة إلى مؤمن قوي، ومصلح جريء يتناول هذه الطوائف المنحرفة بالنقد اللاذع ويكشف القناع عن وجه أخطائها ومغالطاتها بكل حرية وجراءة، معرضاً عن صولتها وقوتها، وغير مبال بعدد أتباعها ونفوذهم.

تجديد الفكر الإسلامي :

وكانت الحلقات العلمية والتدريسية مصابة بجمود شديد، فكل طائفة تعتبر الخروج عن دائرتها الفقهية قيد شعرة جريمة لا تغتفر، وكان مألوفاً لدى كل طائفة أن تنظر إلى الكتاب والسنة بمنظار مذهبها الفقهي، وتحاول تطبيق الكتاب والسنة في الخلافات الفقهية على آرائها في كل حال فضلاً عن تحكيمها فيها، وكان باب الترجيح والاختيارات الفقهية مغلقاً عملياً، وكانت مشكلات حديثة وقضايا جديدة قد حدثت مع تغير الزمان والأحوال، الأمر الذي كان يجيج لإرشاد المسلمين فيها والبحث عن حلولها إلى رجل يجمع بين سعة النظر في ذخائر الفقه الإسلامي، والتعمق في الكتاب والسنة والاطلاع على تعامل القرون الأولى، والعلم العميق الدقيق بأصول الفقه، وقد كان يتضايق مجال العلم والنظر والدراسة على مر الزمان وتضمحل القوى الفكرية، وكأن الفقه الإسلامي قد فقد جدارة النمو والتقدم، ويعتبر من المستحيل أن يزداد إلى ثروة الفقه القديمة أي زيادة.

فكان إصلاح هذا الوضع كذلك يحتاج إلى محدث فقيه وأصولي ضليع يكون قد استعرض ذخائر المكتبة الإسلامية بأسرها، ويستحضر الكتاب والسنة إلى درجة يحار منها الناس، ويعرف الحديث وأنواعه وطبقاته ومجموعاته معرفة دقيقة تضطر الناس إلى الاعتراف بمكانته في صناعة الحديث، حتى يقولوا: «إن الحديث الذي لا يعرفه هذا الرجل ليس حديثاً»^(١) ويكون مستحضراً لخلافات الفقهاء ومراجعهم ودلائلهم في كل حين،

(١) من الأقوال التي قالها كبار علماء العصر في شيخ الإسلام ابن تيمية.

كما يكون له اطلاع تام على المذاهب الفقهية الأخرى وفروعها أكثر من أصحاب الاختصاص فيها والمنقطعين إليها من أهل المذهب، ولا يتعدى حدود السلف مع قوة استنباطه وتحقيقه، عارفاً بمكانة الأئمة المجتهدين وفضلهم وحقهم، مديناً لهم في علمه وتبحره، ويكون ذا قدم راسخة في علوم اللغة وباع طويل فيها، حتى تأهل لذلك للنقد والصيرفة في مجالها، يجمع إلى ذلك علو الكعب ودقة النظر في النحو حتى يأخذ على أئمة النحو الكبار أخطاءهم الفنية، ويمجد بقوة عارضته عهد المحدثين الأولين، يعتبر ذكاؤه آية من آيات الله وعلمه دليلاً على فضل الله، ويبرهن بشخصيته على خصوبة تربة الأمة الإسلامية وغبارة دوحه الإسلام، ونضارة العلوم الإسلامية ونموها وازدهارها، ويكون تصديقاً لما جاء في حديث النبي ﷺ من قوله الخالدة: «مثل أمي مثل المطر، لا يدري أوله خير أم آخره»^(٢).

جامع بين العلم والعمل، والسيف والقلم:

ويكون مع ذلك من فرسان العمل والكفاح، ويجمع بين القلم والسيف، جريئاً في الصدع بالحق، لا يحجم عن قيادة الجيش الإسلامي أمام أضرى عدو مثل الوحوش التتر، ويعرفه كل من حلق الدرس، وزوايا المكتبات، وخلوات المساجد، ومجالس المناظرة، ومعتقلات السجون، وساحات الحرب كفارس عظيم ورجل ذي شكيمة، مبعجلاً في كل عين ومعتزلاً بإمامته في كل طبقة.

كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الذي يسع نشاطه كل مجال من مجالات الحياة من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاوية واحدة أو تتركز على جانب واحد، كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاط وحباً بحركات علمية وعملية لا تزال آثارها خالدة باقية على مر القرون والأجيال.

(٢) رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمته، ورضي لنا الإسلام ديناً، وأمرنا أن نستهديه صراطه المستقيم،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين القيم، والملة الحنيفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

سبب تأليف الكتاب :

وبعد: فإني كنت قد نهيت: إما مبتدئاً أو مجيباً، عن التشبه بالكفار في أعيادهم. وأخبرت ببعض ما في ذلك: من الأثر القديم، والدلالة الشرعية، وبينت بعض حكمة الشرع في مجانبة الكفار، من الكتابيين والأمينين، وما جاءت به الشريعة من مخالفة أهل الكتاب والأعاجم.

وإن كانت هذه قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة، كثيرة الشعب، لكنني نهيت على ذلك بما يسر الله تعالى. ثم بلغني بأخرة أن من الناس من استغرب ذلك واستبعده، لمخالفة عادة قد نشأوا عليها، وتمسكوا في ذلك بعمومات، وإطلاقات اعتمدوا عليها، فاقتضاني بعض الأصحاب أن أعلق في ذلك ما يكون فيه إشارة إلى أصل هذه المسألة، لكثرة فائدتها، وعموم المنفعة بها، ولما قد عمَّ كثيراً من الناس من الابتلاء بذلك، حتى صاروا في نوع جاهلية، فكتبت ما حضرني الساعة. مع أنه لو استوفيت ما في ذلك من الدلائل، وكلام العلماء، واستقرت الآثار في ذلك، لوجدت فيه أكثر مما كتبت.

ولم أكن أظن أن من خاض في الفقه، ورأى إيماءات الشرع ومقاصده، وعلل الفقهاء ومسائلهم، يشك في ذلك. بل لم أكن أظن أن من وقر الإيمان في قلبه، وخلص إليه حقيقة الإسلام، وأنه دين الله، الذي لا يقبل من أحد سواه – إذا نبه على هذه النكتة – إلا كانت حياة قلبه، وصحة إيمانه، توجب استيقاظه بأسرع تنبيه. ولكن نعوذ بالله من رين القلوب، وهوى النفوس، اللذين يصدان عن معرفة الحق واتباعه.

فصل

حال الناس قبل البعثة :

اعلم أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل، وقد مقت أهل الأرض: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا - أو أكثرهم - قبيل مبعثه.

والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصم بكتاب - إما مبدل، وإما مبدل منسوخ - ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك. وإما أمي من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنته، وظن أنه ينفعه: من نجم، أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك.

والناس في جاهلية جهلاء، من مقالات يظنونها علماً وهي جهل، وأعمال يحسبونها صلاحاً وهي فساد. وغاية البارع منهم علماً وعملاً، أن يحصل قليلاً من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين، قد اشتبه عليهم حقه بباطله، أو يشتغل بعمل القليل منه مشروع، وأكثره مبتدع لا يكاد يؤثر في صلاحه إلا قليلاً، أو أن يكدح بنظره كدح المتفلسفة، فتذوب مهجته في الأمور الطبيعية والرياضية، وإصلاح الأخلاق، حتى يصل - إن وصل - بعد الجهد الذي لا يوصف، إلى نزر قليل مضطرب، لا يروي ولا يشفي من العلم الإلهي، باطله أضعاف حقه - إن حصل - وأنى له ذلك مع كثرة الاختلاف بين أهله. والاضطراب، وتعذر الأدلة عليه، والأسباب.

حال الناس بعد البعثة :

فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ، وبما جاء به من البينات والهدى، هداية جلت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمتة المؤمنين عموماً، ولأولي العلم منهم خصوصاً، من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لوجعت حكمة سائر الأمم، علماء وعملاً، الخالصة من كل شوب، إلى الحكمة التي بعث بها، لتفاوتها تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينها، فله الحمد كما يجب ربنا ويرضى .

ودلائل هذا وشواهدة ليس هذا موضعها.

الصراط المستقيم ومخالفوه :

ثم إنه سبحانه بعثه بدين الإسلام، الذي هو الصراط المستقيم، وفرض على الخلق أن يسألوه هدايته كل يوم في صلاتهم، ووصفه بأنه صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: «أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد. فقال القوم: هذا عدي بن حاتم. وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دفعت إليه أخذ بيدي، وقد كان قال قبل ذلك: «إني لأرجو أن يجعل الله يده بيدي» قال: فلقيته امرأة وصبي معها فقالا: إن لنا إليك حاجة. فقام معهما حتى قضى حاجتهما، ثم أخذ بيدي، حتى أتى بي داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها، وجلست بين يديه. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما يفرك؟ أيفرك أن تقول: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟» قال: قلت: لا. ثم تكلم ساعة ثم قال: «إنما يفرك أن تقول: الله أكبر، وتعلم شيئاً أكبر من الله؟» قال: قلت:

لا. قال: «فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصراني ضلال» قال: فقلت: فإني حنيف مسلم. قال: فرأيت وجهه ينبسط فرحاً وذكر حديثاً طويلاً. رواه الترمذي وقال: «هذا حديث حسن غريب».

وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث، قال الله سبحانه:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٠].

والضمير عائد إلى اليهود، والخطاب معهم كما دل عليه سياق الكلام. وقال تعالى:

﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوْلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾

[سورة المجادلة: الآية ١٤].

وهم المنافقون الذين تولوا اليهود، باتفاق أهل التفسير، وسياق الآية يدل عليه.

وقال تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَ

بِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٢].

وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم.

وقال عن النصراني:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾

إلى قوله:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة: الآيات ٧٣ - ٧٧].

وهذا خطاب للنصارى كما دل عليه السياق. ولهذا نهاهم عن الغلو، وهو مجاوزة الحد، كما نهاهم عنه في قوله:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾ . . . الآية .
[سورة النساء: الآية ١٧١].

واليهود مقصرون عن الحق، والنصارى غالون فيه. فأما وسم اليهود بالغضب، والنصارى بالضلال، فله أسباب ظاهرة وباطنة، ليس هذا موضعها.

وجماع ذلك: أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملاً، أو لا قولاً ولا عملاً. وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

ولهذا كان السلف: سفيان بن عيينة وغيره، يقولون: إن من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى. وليس هذا موضع شرح ذلك.

منشأ انحراف المسلمين:

ومع أن الله قد حذرنا سيئهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله، مما سبق في علمه. حيث قال فيما خرجاه في الصحيحين: عن أبي سعيد

الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا أولئك؟».

فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان النبي ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخباراً عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه: أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة.

وأخبر ﷺ: أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة، وأن الله لا يزال يفرس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته.

فعلم بخبره الصدق أنه في أمته قوم مستمسكون بهديه الذي هو دين الإسلام محضاً، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضاً، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلاً.

من مظاهر الانحراف :

وأنا أشير إلى بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم، التي ابتليت بها هذه الأمة، ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم، أو الضالين:

١ - الحسد:

قال الله سبحانه:

﴿ وَذَكَرَ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَرَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾
[سورة البقرة: الآية ١٠٩].

فدم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم.

وقد يتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله بعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقاً، وهو في هذا الموضوع من أخلاق المغضوب عليهم.

٢ - البخل بالعلم وكتمانه:

وقال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾
[سورة النساء: الآيتان ٣٦ - ٣٧].

فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم، والبخل بالمال، وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر، وكذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية. مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ . . . الآية .

[سورة البقرة: الآية ١٧٤].

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا
أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾
[سورة البقرة: الآية ٧٦].

فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم: تارة بخلاً به، وتارة
اعتياًضاً عن إظهاره بالدنيا، وتارة خوفاً أن يحتج عليهم بما أظهروه منه .

وهذا قد يبتلى به طوائف من المنتسبين للعلم، فإنهم تارة يكتمون
العلم بخلاً به، وكراهة لأن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياًضاً
عنه برئاسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله،
وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في
مسألة، فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل .

ولهذا قال عبدالرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم
وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم .

وليس الغرض تفصيل ما يجب أو يستحب في ذلك، بل الغرض
التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به .

٣ — التعصب:

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾

[سورة البقرة: الآية ٩١].

بعد أن قال:

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا
كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٩].

فوصف اليهود: أنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور الناطق به،
والداعي إليه. فلما جاءهم الناطق به من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له.
وأنهم لا يقبلون الحق إلا من الطائفة التي هم منتسبون إليها، مع أنهم
لا يتبعون ما لزمهم في اعتقادهم.

وهذا يبطل به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم، أو الدين،
من المتفهمة، أو المتصوفة، أو غيرهم. أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين
- غير النبي ﷺ - فإنهم لا يقبلون من الدين رأياً ورواية إلا ما جاءت به
طائفتهم، مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقاً: رواية ورأياً، من
غير تعيين شخص أو طائفة - غير الرسول ﷺ - .

٤ - التحريف والاستدلال بالباطل:

وقال تعالى في صفة المغضوب عليهم:

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾

[سورة النساء: الآية ٤٦].

ووصفهم بأنهم:

﴿ يَلُونِ أَلْسِنَتَهُم بِالْكَلِمِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ

الْكِتَابِ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٨].

والتحريف قد فسر بتحريف التنزيل، وبتحريف التأويل.

فأما تحريف التأويل فكثير جداً، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمة، وأما تحريف التنزيل فقد وقع في كثير من الناس، يحرفون ألفاظ الرسول، ويروون الحديث بروايات منكرة، وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك. وربما يطاول بعضهم إلى تحريف التنزيل، وإن لم يمكنه ذلك، كما قرأ بعضهم: «وكلّم الله موسى تكليماً».

وأما ليّ الألسنة بما يظن أنه من عند الله، فكوضع الوضاعين الأحاديث على رسول الله ﷺ، أو إقامة ما يظن أنه حجة في الدين، وليس بحجة، وهذا الضرب من أنواع أخلاق اليهود، ودمها كثير لمن تدبره في كتاب الله وسنة رسوله، ثم نظر بنور الإيمان إلى ما وقع في الأمة من الأحداث.

٥ - الغلو في الدين:

وقال سبحانه عن النصارى:

﴿يَتَّهَلَّأَلِ الْكِتَابَ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾
[سورة النساء: الآية ١٧١]

وقال تعالى:

﴿قُلْ يَتَّهَلَّأَلِ الْكِتَابَ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ
قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾
[سورة المائدة: الآية ٧٧]

إلى غير ذلك من المواضع.

ثم إن الغلو في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائف من ضلال

المتعبدة والمتصوفة، حتى خالط كثيراً منهم من مذهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى أو مثله أو دونه.

٦ - طاعة العلماء والعباد في التحليل والتحريم:

وقال تعالى:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣١].

وفسره النبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه بأنهم: (أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم).

وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمر به وإن تضمن تحليل حرام أو تحريم حلال.

٧ - الرهبانية:

وقال سبحانه عن الضالين:

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧].

وقد ابتلي طوائف من المسلمين، من الرهبانية المبتدعة بما الله به عليهم.

٨ - بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين:

وقال الله سبحانه:

﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا ﴾

[سورة الكهف: الآية ٢١].

فكان الضالون - بل والمغضوب عليهم - يبنون المساجد على قبور الأنبياء والصالحين. وقد نهى رسول الله ﷺ أمته عن ذلك في غير موطن حتى في وقت مفارقتة الدنيا - بأبي هو وأمي .
ثم إن هذا قد ابتلي به كثير من هذه الأمة .

٩ - جحد الحق لدى الطوائف الأخرى:

وقال سبحانه:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٣].

فأخبر أن كل واحدة من الأمتين تجحد كل ما الأخرى عليه .

وأنت تجد كثيراً من المتفهمة، إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئاً ولا يعدهم إلا جهالاً ضلالاً، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئاً، وترى كثيراً من المتصوفة، والمتفكرة لا يرى الشريعة ولا العلم شيئاً، بل يرى أن المتمسك بها منقطع عن الله وأنه ليس عند أهلها مما ينفع عند الله شيئاً.

وإنما الصواب: أن ما جاء به الكتاب والسنة، من هذا وهذا: حق . وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا: باطل .

١٠ - التأثير بعادات الفرس والروم:

وأما مشابهة فارس والروم، فقد دخل في هذه الأمة من الآثار الرومية، قولاً وعملاً، والآثار الفارسية، قولاً وعملاً، ما لا خفاء به على مؤمن عليم بدين الإسلام، وبما حدث فيه .

وليس الغرض هنا تفصيل الأمور التي وقعت في الأمة، مما تضارع

طريق المغضوب عليهم أو الضالين، وإن كان بعض ذلك قد يقع مغفوراً لصاحبه: إما لاجتهاد أخطأ فيه: أو لحسنات محت السيئات، أو غير ذلك. وإنما الغرض أن نبين ضرورة العبد وفاقته إلى هداية الصراط المستقيم، وأن يفتح له باب إلى معرفة الانحراف.

مضمون الصراط المستقيم:

ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب: من اعتقادات، وإرادات، وغير ذلك. وأمور ظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضاً عادات في الطعام واللباس، والنكاح والمسكن، والاجتماع والافتراق، والسفر والإقامة، والركوب وغير ذلك.

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينها ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً.

الحكمة في مخالفة أصحاب الجحيم:

وقد بعث الله محمداً ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم، والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدى الظاهر - وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة - لأمر:

منها: أن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال. وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم - يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللايس لثياب الجند المقاتلة - مثلاً يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضياً لذلك، إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة وتوجب الانقطاع عن موجبات الغضب. وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى. والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتم حياة، وأعرف بالإسلام – الذي هو الإسلام، لست أعني مجرد التوسم به ظاهراً، أو باطناً بمجرد الاعتقادات، من حيث الجملة – كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين، أشد.

ومنها: أن مشاركتهم في الهدى الظاهر، توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميز ظاهراً، بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا، إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر إلا مباحاً محضاً – لو تجرد عن مشابهتهم – فأما إن كان من موجبات كفرهم كان شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم. فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له.

* * *